ويُعدُّون من اهل الكتاب اي النصارى (يراجع ما سبق عن النصرانيَّة في المدينة)

١٩ ع (ربيعة) هو اسم يطلق على القبائل العديدة المنتسبة الى ربيعة بن نزار وهي اكبر قسم من القبائل العدنانيَّة الاربع اعني اثار واياد وربيعة ومضر. وقد انتشرت النصرانيَّة في ربيعة حتى اوشكت تشمل كل بطونها وفروعها فترى من ثمَّ كتبة العرب اذا ذكروا النصرانيَّة في الجاهليَّة جعلوها خصوصاً في ربيعة قال الفيروزابادي: «وكانت النصرانيَّة في ربيعة». وشهد بذلك قبلهُ ابن قتيبة في المعارف (ص ٣٠٥ من طبعة مصر) وابن رسته في الاعلاق النفيسة (ص ٢١٧) والقاضي ابن صاعد في كتاب طبقات الامم (ص ٤٣ من طبعتنا) وغيرهم كثيرون. فقولهم «انَّ النصرانيَّة كانت في ربيعة» باطلاقه يدلُّ على انَّ هذا الدين كان الغالب عليهم على اختلاف قبائلهم. ويؤيد ذلك ما رويناه عن نصرانيَّة اعظم قبائل ربيعة كبكر وتغلب وامرئ القيس وحنيفة وشيبان الخ. فتاهيك بذلك شاهداً على شيوع النصرانيَّة بين العرب (له بقيَّة)

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٨ طور عبدين

لم نُطل الاقامة في ماردين بعد رجوعنا من ديار بكر فاخذنا نستعدّ لسفرنا الى الموصل واذ لم نجد قفلاً اليها على طريق المدن المأهولة اتَّفقنا مع احد المكارين الاكراد ليعدّ لنا الدواب اللازمة فتعهَّد ان يرافقنا الى الموصل. وهؤلاء الاكراد اذا استوثقوا بعهد ثبتوا عليهِ ولم يخونوا بأيمانهم. وكان سيرنا مع هذا الكردي مأمناً لطريقنا لانَّ شذَّاذ الاكراد ولصوصهم لا يتعرَّضون عادةً لمن كانوا في عهدة الواحد منهم. ثم اجدانا هذا المكاري نفعاً اعظم بملازمة خدمتنا في مدَّة تلك المذابح التي كان باشر بها هؤلاء الاكراد باغراء السلطان عبد الحميد

فكان وداعنا لماردين في صباح يوم الخميس ٣١ تشرين الاوَّل. فارقنا للمعارف والاقارب رغماً عمَّا كان يبلغنا من الاخبار المزعجة فكانت الالسنة تتناقل الانباء

المتناقضة فلا نعلم ما فيها من الصدق او الكذب فجلسنا الامل على الله الذي لا يخيب رجاء المتصمين بجبله. وكان اخي الذي صحبنا الى ديار بكر اراد ايضاً ان يمشي في خدمتنا الى بغداد فكان لنا في هذا السفر كملاكنا الحارس المنظور فلم يقتصد شيئاً من اتعابه وتفانيه ليجعل سفرنا هنيئاً ولا يُبقي لنا همًّا من جهة كل الماديَّات. وكنَّا ايضاً قدَّمنا لمتصرف ماردين البيولردي الذي نالهُ لنا قنصل فرنسة في ديار بكر فعيَّن لنا جندياً يسير معنا فيردّ نظرهُ كل المعادين

كان مسيرنا شمالي شرقيّ ماردين على طريق قضاء مديات. فقطعنا التلال المتصلة بجبل ماردين بين حدائقها الغنَّاء. ثم غاباتها الوارفة الظلّ حيث ينمو خصوصاً الغض والبلُّوط الحلو. وعلى هذه الاشجار يتكوَّن المنّ في الربيع فيجمعهُ اكراد القرى المجاورة ويبيعونهُ في ماردين وديار بكر والموصل. وهذا المنّ لذيذ الطعم واذا جُني حديثاً كان كالكزبرة يأتدمهُ الناس مع خبزهم. ومنهم من يحفظهُ السنين الطويلة بان يجعلهُ في دقيق الحنطة ويخزنهُ في امكنة باردة فيصلب كالحجر ويبقى على طعمهِ. وكثيرًا ما يكون المنّ ممتزجاً بدقائق من ورق الغض التي تُنقِّيهُ شيئاً من لذَّتهُ فيغلونهُ في الماء ويطفو الورق على الوجه فيُنزع ويصفَّى المنّ وتُصطنع منهُ القطائف والحلويات (١

ثمَّ بلغنا الى رُبًى مكشوفة للشمس فيها الكروم الشهيرة بأثمارها الطيبة. وعنب ماردين كبقيَّة الفواكه النامية فيها غاية في الجودة. وكان اهل تلك الانحاء يتطفون عنبهم فكانوا يأتوننا بسلال منها لنباركها. وهذا العنبُ غالباً يؤكل على حالتهِ او يزبَّب فيُرسل الى جهات تركيا واوربَّة وقلَّما يصنعون منهُ خمرًا لصعوبة انفاقها عندهم. وخمر ماردين مع ذلك شهيرة ورد ذكرها في كتابات اليونان والرومان

حللنا عند المساء في قرية تُدعى قلّث تحتوي على نحو ٥٠٠ نفس نصفهم سريان كاثوليك والنصف الآخر يعاقبة. فنزلنا عند كاهن السريان وكان ذلك المساء يقيمون عيد جميع القديسين وكان قد اتى القرية قبل وصولنا ناس هربوا من قرى ديار بكر فاخبروا انَّ الاكراد هجموا على نواحي آمد وشرعوا يقتلون وينهبون ويحرقون ضياع النصارى. فاقلق هذا الخبر اهل قلّث فجلسنا نطمن بالهم ونهدّي روعهم بذكر

١) راجع في المشرق (١ : ١٠٧٨) مقالتنا عن « منّ بني اسرائيل »

عدل الحكومة السنيَّة التي تزجر اولئك الاشقيا. وتجازيهم قريباً على سوء فعلهم وما كنَّا لنظنّ انَّ الدولة هي التي دفعتهم الى اقتراف تلك الاعمال الفظيعة انتقاماً من الارمن على زعمها . وفي تلك الليلة بلغنا ان الاكراد احاطوا بارديين

وقلعة هذه كانت قديماً حصناً منيعاً وبجوارها كان دير لقدماء الرهبان ينسب لمار آبا احد السيَّاح من تلامذة القديس اوجين والسريان الكاثوليك فيها اصلهم من اليعاقبة المرتدّين وكنيستهم حديثة واسعة لكنها فقيرة جدًّا . اما اليعاقبة فلهم هناك كنيسة عتيقة على طرز الكنائس الواقية الى القرن الخامس او السادس للمسيح وهي الآن كسرب يُنزل اليها في قلب الارض وهي ثلثة اسواق تسندها السواري وتزينها بعض التصاوير المطموسة وقد ارانا الكاهن خادمها انجيلًا قديماً على رقّ ذا نقوش وصور جميلة وهو مكتوب بالحرف الاسطرنجلي . وقد وجدنا في احدى زوايا الكنيسة نسخة اخرى مثلها مهملة قد اتلفها العثّ والرطوبة . فعرضنا على الكاهن ان يبيعها او يعتني بامرها لئلَّا تُفقد فكان جوابهُ انهُ يبيعها لاحد الانكليز بثمن غالٍ . وهؤلاء اليعاقبة باسوأ حال لا يعرفون غالباً من امور دينهم شيئاً وقد دخل البروتستان بينهم منذ نحو خمسين سنة فاشربوا صغارهم اضاليلهم وافسدوا معتقداتهم

قمنا صباح الجمعة باكرًا وهو يوافق لغرَّة تشرين الثاني فقدَّمنا الذبيحة الالهيَّة على ذكر جميع القديسين . وكان لهذا العيد الشريف وقع مؤثر في قلبنا ونحن قد دخلنا في ذاك الجبل الذي تقدَّس فيهِ الوفٌ من النسَّاك الذين اخذوا الطريقة الرهبانيَّة عن مار اوجين تلميذ مار انطونيوس فعمَّروا الاديرة وسكنوا المغاور والكهوف ومارسوا اسمى الفضائل وازالوا ما كان في تلك البلاد من آثار الوثنيَّة حتى صار ذلك القطر كصعيد مصر لشبه بفردوس عدن لصلاح اهلهِ فدُعي لذلك بطور عبدين اي جبل القديسين

سرنا في ذاك النهار متوغلين في طور عبدين فكنَّا نرى عن بعد آثار اديرة قديمة ومناسك مختلفة ولا نكاد نلقى في طريقنا حيًّا الَّا بعض القرى الحقيرة يسكنها قوم من الاكراد او العرب . ونزلنا عند العصر في احدى تلك القرى تدعى خلدة اهلها كلُّها مسلمون فاضافنا شيخها وبتنا ليلتنا في دارهِ

وخلدة هذه محاطة بمغاور منقورة في الصخر كان النسَّاك يسكنونها في سالف

الزمان. فخرجتُ لاتفقّدها وانا اتلو كتاب الفرض القانوني فتوهّم بعض شبّان المحلّ اني ساتر للتفتيش عن كنوز مخفية هناك فجرى لي معهم كما جرى لي سابقاً مع غيرهم في خان السبل (اطلب المشرق ٨: ٩٢١—٩٢٢) واخذت افسّر لهم انّ تلك الكهوف كانت مأوى للزهاد الذين جعلوا كنوزهم في السماء حيث لا يقرض عثّ ولا يسرق سارق على خلاف الكنوز المادّية التي تنفد وتفنى

ولمّا عدتُ الى بيت الشيخ اجتمع عندهُ اهل القرية فاخذوا يلقون علينا الاسئلة في امور شتى كانت تشغل افكارهم عن تاريخ تلك البلاد واهلها والدول التي تقلبت عليها ودينها القديم وغير ذلك حتى غلب علينا النوم بعد تعب الطريق. فطلبنا منهم ان يسمحوا لنا بان نصلي صلاتنا ثمّ نرقد لا سيما ان رفيقي حضرة الاب شلفون كان اصيب بعد خروجنا من ماردين بضنك وحمّى فكان محتاجاً الى الراحة

ثمّ واصلنا سيرنا حثيثاً قبل السحر لنبلغ الى مديات في ضحى يوم السبت وكان فيه تذكار الموتى لاقدّس هناك لراحة نفوسهم في كنيسة السريان الكاثوليك. ولم نلقَ في طريقنا ما يستحقّ الذكر الّا اننا كنّا نسمع من ابناء السبيل والمكارين النصارى انّ اخبار ديار بكر سيئة وانّ اكرادها قاموا على النصارى. فكنّا ننسب هذه الاقوال الى الاوهام فلا نعيرها بالًا

مِدْيات او مدياد مدينة قديمة سبقت عهد المسيح وهي حاضرة طور عبدين موقعها في بطحاء فسيحة تحدق بها الروابي والتلال المزدانة بالكروم والاشجار المثمرة وتسيل فيها العيون امّا اهل البلد فشربهم من الآبار وهي مركز قضاء يحكم فيها قائمقام تحت امر متصرّف ماردين ووالي ديار بكر. واهلها يبلغون من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ نسمة نصفهم مسلمون واكراد والنصف الآخر يعاقبة وارمن غريغوريّون وسريان كاثوليك

ومديات تُعدّ كمقلّ اليعاقبة منذ دخلت بدعتهم ما بين النهرين فحوّلوا طور عبدين بعد ازدهاره بالفضائل ووفرة مشاهير رجاله ذوي البرّ والاعمال العظيمة الى قفر لم يبقَ فيه للدين الّا آثار بعد عين. وكثيراً ما جرت بين اهل الطور واكراد هذه النواحي حروب ومنازعات كانت الدولة تسف فيها الاكراد على خصومهم سرّاً وجهاراً. ويعاقبة طور عبدين مشهورون بالغلظة وفظاظة الطباع والجهل ولهم لغةٌ

تعرف بالطورانيَّة وهي السريانيَّة طرأ عليها بعض الفساد وقد ألَّف الاب باريزو (Parisot) وغيرهُ كتباً في لهجتهم وخواصها (١

كان مقامنا في مديات في دار السريان الكاثوليك حيث كان يقيم سيادة المطران يوحنَّا ممار باشي من قدماء تلامذة مدرستنا الاكليريكيَّة في غزير والنائب البطريركي على ماردين فتلطف سيادتهُ واستقبلنا بزيد الحفاوة فمددنا يومي اقامتنا عندهُ كيومي عيد وجد فيهما حضرة الاب شلفون راحةً ومعافاة من مرضهِ

وانتهزنا هذه الفرصة لنزور المدينة ونبحث عن آثارها الدينيَّة والادبيَّة . والبعاقبة في مديات كنيسة قديمة كانت كرسيًّا لمطريان وبقربها دير يسكنهُ بعض رهبانهم ولهم حول المدينة كنائس واديرة منها كنيسة على اسم مار فيلوكسين احد مشاهير كتبة اليعاقبة وانصار يعقوب البرادعي وهي قديمة قد استولى عليها الخراب

امَّا المخطوطات فلم نجد منها في مديات لدى اليعاقبة سوى تآليف ابن العبري السريانيَّة كتواريخه وكتبهِ اللاهوتية والفلسفيَّة وكلها مصروفة منها عدَّة نسخ في مكاتب اوربَّة . وكذلك أروتا بعض مخطوطات من الكتب المقدَّسة من الترجمة البسيطة يرتقي بعضها الى القرن العاشر والحادي عشر . واطلعونا ايضاً على بعض اعمال مجامع وكتب طقسيَّة وميامر للآباء لم نجد بينها ما فات امرهُ علماء اوربة

امَّا السريان الكاثوليك فحديثو العهد في مديات . كان اوَّل اهتدائهم سنة ١٨٤٦ حيث جرت مجادلة بينهم وبين السيد انطون مسحيري مطران ماردين على السريان الكاثوليك فاقنع بالحقيقة ثلاثة من اساقفتهم : زيتون جلمه مطران طور عبدين واسطفان مطران الجزيرة وغريغوريوس مطران حمص وحماة فانضمُّوا الى الكثلكة وتبعهم قوم من رعاياهم . لكنَّ اليعاقبة اثاروا على هؤلاء المرتدِّين انواع الاضطهادات وهيَّجوا عليهم عمَّال الدولة وصوَّروهم كتبعة الفرنج واعداء الوطن . وكان حينئذٍ مدبِّرًا لقصادة ما بين النهرين السيد مبارك بلانشه رئيس الرسالة السوريَّة على اليسوعيين سابقاً فلما علم بامر اولئك الكاثوليك وما اصابهم من الظلم ارسل رفيقهُ الاب يوسف لابورد ليهتمَّ بامورهم فقدم مديات وتعلَّم السريانيَّة وجاهد الجهاد الطيب في سبيل الكثلكة ففتح المدارس للصغار وابتنى كنيسة للكاثوليك فرجع على يدهِ كثيرون .

(١ المجلة الاسيويَّة الفرنسويَّة (JA, 9e Série, XIII, p. 167)

الّا انّ اليعاقبة سعوا بنفيه واخرجوه مرّتين بالقوّة من مديات وهو لم يزل يناصب اعداء الكنيسة ويبقي على ذلك ست سنوات حتى وقعت في طور عبدين فتن جديدة وتهدّدوا الاب لابورد بالقتل فالحّ عليه كاثوليك مديات بان يرحل الى ماردين ريثما تهدأ الامور وعلم السيد بلانشه بما يدسّه اليعاقبة لرفيقه فامره بان يعود الى الموصل وهكذا بقيت رسالة مديات معرّضة من جديد للاخطار فقلّ الكاثوليك فيها حتى استأنفها مرسار دير مار افرام في ماردين فكانوا في يوم مرورنا يصرفون جهدهم في ردّ اليعاقبة. وقد روى لنا بعض الذين عرفوا الاب لابورد عدّة اخبار تثبت قداسة هذا المرسل الذي عطّر بفضائله الرسوليّة انحاء بلاد سوريّة حيث كان قدوةً للرهبان اخوته والجمهور المؤمنين. وكان طبيباً نطاسيّاً يهتمّ بكل المرضى على اختلاف اديانهم مجّاناً وقد ساعدته هذه المعارف الطبيّة في رسالة ما بين النهرين وبلاد الشام على اكتساب ثقة كل من كان يلتجئ اليه. وكانت وفاته في بيروت برائحة القداسة في ٢٠ شباط ١٨٨٤

وكان يوم الاحد ٣ تشرين الثاني يوماً مشهوداً في مديات لانّ السيد حنّا معمار باشي كان جعله موعداً لسيامة شماس كان ارتدّ من اليعقوبيّة فعُقدت حفلة كبيرة غصّت الكنيسة بالحضور لمشاهدتها فاغتنم سيادته الفرصة ليلقي عليهم عظة نفيسة بيّن فيها رئاسة الاحبار الرومانيين بشواهد الآباء السريان وعدّد مآثر الكنيسة الرومانيّة نحو الشرقيين وان كانوا بعيدين عنها. فكان لكلام الخطيب احسن وقع في النفوس. وفي غد ذلك النهار ركبنا الى دير العمر ونيتنا ان نسير منه الى سعرت

(لهُ تابع)

مطبوعات شرقية جديدة

HISTOIRE DES ARABES par Ch. HUART, tome I. *Paris, Paul Geuthner*, 1912, in-8°, p. IV-381.

تاريخ العرب للمسيو كليان هوارت

انّ التآليف الفرنسويّة في تاريخ العرب قليلة. وآخر ما نُشر من ذلك تاريخ